٤ ـ العالم : كيف خلق وكيف تطور ؟

بقلم الأستاذ محمد مظهر سعيد
أستاذ علم النفس بمعهد التربية وكلية أصول الدين

انتهيت فى المقال السابق [١] من بحث أساطير الطبقة الثانية، التى كان يقول بها أهل المدنيات القديمة : مصر ، وبابل ، وآشور ، والصين ، واليابان ، والهند ، وغير ذلك من الأمم المجاورة المعاصرة ، التى نرجح أنها خرجت جميعها من أصل واحد قديم، نشأ فى حضبة البامير الكبرى، وانتشرت أنساله وأجناسه فى الجزء المعروف من الدنيا القديمة ، وأساطير الأسكندناويين ، وأهل المكسيك ، والجزر الشمالية والجنوبية ، التى لا نعلم عن أصلها شيئاً ، وليس للعلم الحديث فيها رأى قاطع غير أنها أجناس بشرية ؛ وبينا أوجه الشبه بين كافة أساطير هذه الطبقة على اختلاف أجناسها وأصقاعها وديانتها ، وبين أساطير الطبقة الأولى الأولية ، التى نعدها فى ديانات أجناس أفريقيا المنحطة ، وسكان استراليا الأصليين، وبعض القبائل المتوحشة من الهنود الحمر ؛ وانتهينا إلى رأى نطمئن إليه تمام الاطمئنان ، وهو أن أسطورة المدنية القديمة ذات وجهين: وجه نقرأ فيه الأسطورة الأولية الخرافية السقيمة: بذاتها، بحيوانها، وذكرها، وأنثاها ، وأرضها ، وسمائها ، وشمسها السابحة ، ونجومها المعلقة ، وغير ذلك مما يصوره ويستسيغه عقل الانسان الهمجى ؛ ووجه آخر نطالع فيه شيئاً من روعة الخيال ، ودقة التصوير المبنى على الملاحظة والمشاهدة ، وما يمكن أن يستنتجه عقل تذوق شيئاً من طعم المدنية ، واكتحلت عيناه ببريق ضئيل من نور العلم .

وانتهينا كذلك إلى أن هذه الصور الخاصة تتفق فى جوهرها ، وتختلف فيما تقتضيه الأوساط الجغرافية وظروف الحياة ، وطرق العيش من اختلاف وتباين ؛ وأن الاتفاق فى الأساطير لم يأت عفواً أو عن طريق النقل ، وإنما حتمته طبيعة العقل البشرى ذاته فى ذلك الزمان السحيق ؛ لأنها لا تجد صورة غيرها تفهمها أو تعقلها ؛ وخيال الانسان ينحط ويسمو بقدر عقله وتفكيره ، ولم يبق من أساطير هذه الطبقة غير أسطورة أهل فينيقيا ـ سكان آسيا الصغرى ـ الذين جابوا أقطار الأرض من مشرقها إلى مغربها ، واغترفوا من بحور علم أهل المدنيات القديمة ، ونقلوا ما فهموه وتعلموه إلى اليونان فى الشرق ، وقرطجنة والرومان فى الغرب ؛ وكانوا بريد الأمم القديمة .

---

(١) راجع الجزء السابق من « الهداية » ص ٢٠٧ .

وفى الحق أن الأسطورة الفينيقية لجديرة بأن توضع فى مرتبة خاصة ، وفى درجة أرقى لقربها من مستوى تفكيرنا ونتائج العلم الحديث ، ذلك لأن الفينيقيين لم يجهدوا أنفسهم ، ويرهقوا عقولهم فى تلمس حل لمشكلة خلق الدنيا ، فقد أغنتهم المدنيات القديمة المعاصرة مؤونة هذا العمل ، وقدمت لهم أساطيرها ودياناتها طعاماً سائغاً ، يتقطفون منه ما شاءوا ، وكأنهم خشوا أن يتخبطوا كما تخبط من سبقهم فى وضع أسطورة جديدة تصطبغ باللون الفينيقى البحت : ما اكتفوا - فى مقدمة خلق الدنيا - بصورة تخيروها من بين الصور القديمة، ووجهوا تفكيرهم الى إتمام الجزء الذى نسيه الأقدمون عما تم بعد خلق الدنيا ، فجاءت أسطورتهم من هذه الناحية أقرب ما تكون الى نظرية التطور الحديث ، وتدرج السلم الحيوانى والجيولوجى، وإليك ما كانوا يقولون :

فى بدء العالم كان هناك - من غير تحديد للمكان - ظلام ورياح ، لم يتقاتلا ويتطاحنا معاً ، وإنما اتحدا فكونا الطين أو المادة السوداء التى هى أصل جميع المخلوقات . وعندئذ سطعت الشمس والقمر والكواكب فجأة - من غير أدنى إشارة إلى الطريقة التى خلقت بها هذه الأجرام السماوية ، أو ذكر شىء عن الآلهة التى خلقتها - ، وتحرك الريح فى السماء فكان غيم ومطر . ولما انفصلا بحرارة الشمس تصاعدا ثانية ، فصار الرعد والبرق (وهنا تنتهى الأسطورة القديمة البحتة ، وتبدأ فكرة التطور الحديثة) ؛ وكانت الحيوانات إذ ذاك عديمة الإحساس ، فهالها الأمر ، وتملكها الذعر ، فاندفعت مذعورة تريد الهرب مما أحاط بها من البلاء ، وانتشرت فى الأرض والسماء ، واختلطت ذكور وإناث ، وهكذا نشأ الإحساس عند الحيوان وتطورت من عديمة الإحساس إلى ذات إحساس كامل ، وسلسلة فقرية (وهذا هو نفس ما يقول به داروين وهيجل فى أصل الأنواع ونشأتها وتطورها) .

وقبل أن نختم كلامنا عن أساطير هذه الطبقة ، ونتدرج إلى الطبقة الثالثة الفلسفية التى انتشرت عند اليونان والرومان، يحسن بنا أن نذكر شيئاً عن بيضة الوجود، وما كان لها من مقام كبير عند أهل الديانات القديمة وحتى اليونانية والرومانية ، وما لعبته من دور خطير فى أساطير خلق العالم وتكوينه ؛ فالمصريون القدماء يقولون بأن (سنبح) الخالق أو (بتاح) مظهر الإله الواحد يخرج من بيضة الوجود ليكمل خلق العالم ، وكذلك أجمعت الأوساط المصرية على أن بذور كل الأشياء كانت نائمة فى بيضة الوجود عصوراً متعاقبة ، فضتها البيضة فى فيضان الظلمة، ولكنهم اختلفوا فى الخالق ذاته، فبعض المقاطعات تقول بأن : خوفو أو نون أو نور الشمس ، خلق البيضة ومعها الانسان ؛ والبعض الآخر يقول بأن الإله بتاح هو الذى كسرها بمموله، وفى قول آخر : إن (تحوت) إله القمر والذكاء هو الذى نفخ بذور الوجود والحياة فى البيضة .

وعند الهنود تجد فى مؤلفاتهم المقدسة «ساتاباتا براهانا» قصة بيضة الدنيا والسلحفاة — التى ترتكز عليها الأرض — مفصلة تفصيلا يجعلها قريبة الشبه من أقاصيص الهنود الحمر، وكذلك فى «الريج فيدا المقدسة» الشيء الكثير عن البيضة.

وتجد كذلك عند أهل السواحل، وسكان الجزر (أهل فنلنده وجزائر سندوتش مثلا) قصة الطائر الخالق: الذى يضع بيضة الوجود على سطح البحر الأزلى اللانهائى.

وفى أساطير الرومان يقول: (أوفيد) فى كتابه (ميتا مورفوسس):

«كان فى العالم قبل ظهور الأرض والسماء التى تحيط بكل الأشياء إله واحد يحكم العالم كله — ليس له شكل ولا هيئة — يسميه الناس (كاووس أو الفوضى)، فرأى أن يجمع كومة من بذور الوجود، ويضعها فى البيضة مختلطة من غير نظام، ويتركها حتى تفقس، ويخرج منها العالم».

وتجد كذلك عند (الكلت) المتأخرين — وهم سكان فرنسا وغالة — أسطورة البيضة التى خلقها الإله الثعبان ثم ابتلعها.

وفى أساطير (لا كيديمونيا) أن الإله (جوبتر) زار (ليدا) متنكراً على هيئة بجعة، فولدت منه بيضتين: إحداهما الملكة هيلينا. وعند أهل بيرو أسطورة العذراء التى اغتصبها الإله واتصل بها، فوضعت له بيضتين، خرج من الأولى إله الشر، أو الموت، (فالموت، أو العدم، أو الشر، أو الظلام أسبق فى الوجود)، ومن الثانية إله الخير، أو الحياة.

ولم تقتصر البيضة على مكانتها التى تمثلها فى قصة الخلق والتكوين، بل تعدته إلى الأساطير الدينية المتأخرة عند الروس واليهود، فصارت رمزاً للبعث والتجدد والنشور والحياة بعد الموت.

محمد مظهر سعيد

من ... التحرير

١ — نرجو أن يذكر المرسل اسمه وعنوانه واضحاً، وإذا شاء إخفاء اسمه أو الرمز عنه فليوضح ذلك.

٢ — نرجو أن تكون المقالات واضحة الخط لتسهل قراءتها، وتكون على وجه واحد من الورق، ويجب أن تكون خاصة بالمجلة وإلا يهمل نشرها.

٣ — المجلة حرة فى نشر ما ترى فائدة من نشره، وإهمال ما لا يتفق وأغراضها.

٤ — المجلة لا تتعرض للأديان بنقد، ولهذا نرجو حضرات الكتاب ملاحظة ذلك.